

رجل وامرأة في حوض السمك

((غرفة جلوس، أثاثها يدلّ على أنه لم يتغير منذ ثلاثين عاماً. ساعة الجدار تشير إلى الساعة الثامنة، مقدار رجل في السبعين من عمره، أستاذ فلسفة متقاعد، يجلس أمام جهاز التلفزيون المطفأ، تدخل زوجته عطرية في الستين من عمرها، وهي أستاذة كيمياء، متقاعدة، لا تزال فيها مسحة جمال، تحمل صينية عليها فنجان قهوة)).

عطرية : القهوة يا مقدار.
مقداد : كيف هي؟
عطرية : سادة، السكري في صعود معك.
مقداد : السكري في صعود، وتفاولي بالحياة في هبوط، هل نام الأولاد.

عطرية : أولاد! لم يبق عندنا أولاد، نهى تزوجت، واحمد سافر إلى رومانيا ليتم دراسة الطب، وهذا كل ما لدينا من أولاد.
مقداد : لكن لا مانع أن تتفدي غرفة نومهم، على الأقل لنشعر أننا أسرة، ولا أسرة بدون أولاد.

عطرية : حاضر.
(تخرج عطرية، يشعل مقدار مسجلة، فينبعث صوت صالح عبد الحي بأغنية حبيبي هوا، تدخل عطرية).

عطرية : الأولاد في أحسن حال، أسرّتهم نظيفة، مرتبة، وصقيلة كالمرأة.

مقداد : هل ناموا؟
عطرية : نعم.
مقداد : وتعشوا؟
عطرية : وتعشوا.
مقداد : كم الساعة؟
عطرية : الثامنة وخمس دقائق.

مقداد : عظيم، حان وقت النوم.
عطرية : إيه يا مقدار، لا يوجد عندك سوى اليقظة والنوم، لنسهر ليلة واحدة، ليلة واحدة في السنة.

مقداد : نسهر؟! وهل نحن أطفال، أو مراهقون، للسنّ حقّه يا عطرية، نم باكراً، واستيقظ باكراً، وانظر كيف تصير الصحة.

عطرية : وما الفائدة من الصحة إن لم يتبعها عمل؟
مقداد : إنني أعمل.
عطرية : بم؟

مقداد : أذهب عند صديقي أدهم، أتفقده، وأطمئن على أنه لا يزال حياً. لا تنسي أنني لم أذهب يوماً لعند صديقي مصطفى، فتوفي، ودفن دون أن أعلم، يجب أن أطمئن على أصدقائي كل يوم، على أنهم لا يزالون أحياء، وهم قلّه، أدهم، وغسان، وزبياد.

- عظرية : زياد مات.
- مقداد : حقاً!
- عظرية : منذ سنوات. أم أنك قد نسيت.
- مقداد : لم أنس، لكنني أرفض أن أعتبره ميتاً، لذلك كل يوم أمرّ قرب باب منزله، لا طمئن عليه.
- عظرية : دعك من هذه الحماقات، فالمهم العمل.
- مقداد : أي عمل؟
- عظرية : العمل يا مقداد، أم نسيت ما هو العمل؟
- مقداد : آه، بداية كل شهر أذهب إلي مركز البريد لأحضر راتب التقاعد، أمرّ على المقهى- أجلس فيه وحيداً، منفرداً، لأثبت لأشجار المقهى أنني لا أزال حياً، ماذا تريدون أن أفعل غير ذلك.
- عظرية : سأرشدك إلى ما يجب أن تفعله.
- (تتهض عطرية)
- مقداد : إلى أين؟
- عظرية : إلى المطبخ، وسنمضي ليلة ممتعة. بعد أن أعود من المطبخ.
- مقداد : لا فائدة، مزاج المرأة غريب، فيه كثير من الجنون، والعبث، بل حتى الفوضى.
- (تدخل عطرية حاملة حوض سمك صغير، أقرب إلى إناء كروي، تضعه على الطاولة أمام مقداد)
- عظرية : انظر يا مقداد، ما أجمل حياة السمك.
- مقداد : حقاً إنها جميلة، إيه، سبحان من خلق السمك والماء، فلو خلق الماء بدون سمك، أو السمك بدون ماء، لكانت مشكلة.
- عظرية : ماذا يعجبك في السمك؟
- مقداد : حركته.
- عظرية : حركته؟
- مقداد : أجل، لا يكفّ عن الحركة، رغم أنّ الإناء صغير الحجم فالسمك دائم الحركة، إنه يتحرك كما لو أنه يسبح في بحر واسع، أو محيط لا متناهي الأطراف، لعل حياتنا هي هكذا، نسبح في مكان ضيق، وزمان، أضيق، لكن الاستغراق في السباحة يجعلنا نشعر أننا نسبح في محيط هائل من الماء، مع أن نقرة بسيطة على طرف الإناء، تنهي مأساة الحياة. مأساة الإنسان، مأساة الوجود، وهي في صميمها ملهأة.
- عظرية : لقد أفضت في الشرح، لكنك ترتكب دائماً بعض الأخطاء، ودائماً تهرب من الموضوع المهم.
- مقداد : أي موضوع يا عطرية، إنني منهك، ويجب أن أنام، لا تعذّبيني بمزيدٍ من الكلام.
- عظرية : كلامي معك صار عذاباً، إننا يا حبيبي نتغازل.

- مقداد : نتغازل بم، ولم؟
عظرية : لم؟ تعود لأخطائك اللغوية، تقول السمك يتحرك، كما لو أنه قطع هائل يسبح في بحر كبير، وهذا تضليل، تضليل متعمد منك، وينم عن نوايا سيئة، وخبيثة، الأصح أن تقول إنهما يتحركان. فهذا الوعاء لا يحتوي إلا على سمكتين، لا تكفان عن الحركة ليل نهار، انظر يا عزيزي أتدري أيهما الأنثى؟
- مقداد : متعصبة دائماً للأنثى.
عظرية : لأنها أصل الوجود، والمخلوقات.
مقداد : إن أردت، فإن السمكة الأنثى هي تلك السمكة السوداء، القبيحة، الطويلة الجسم، أما السمكة الذكر، فهي تلك الصغيرة الحجم، ذات الألوان الذهبية والصفراء الجميلة، انظري، حتى في السمك، الذكر أجمل وأبهى.
- عظرية : وأكثر نشاطاً.
مقداد : أكثر نشاطاً بم؟
عظرية : بالنشاط.
مقداد : بدأت تنحرفين يا عظرية، إيه، النوم سترة للإنسان.
((ينهض))
عظرية : اجلس يا مقداد، إننا نتسلى.
مقداد : فقط.
عظرية : فقط.
مقداد : سأجلس إذن.
عظرية : انظر إلى هاتين السمكتين، أليس أمرهما غريب. منذ أشهر أراقبهما، وأتساءل عن السر ما الذي يدعو السمك الذكر لمطاردة السمكة الأنثى.
- مقداد : لعله دافع غبي وأحمق، بل ربما دافع مجنون بالأصل، ضد العقل والمنطق والحضارة.
عظرية : خسارة يا مقداد، أحياناً أتساءل، ماذا لو كنا سمكاً، أنا وأنت.
- مقداد : ما هذا يا عظرية، لقد كرّمنا الله لأننا بشرٌ.
عظرية : لقد كرّمنا حقاً، لكن نشاط السمك أمرٌ جميل، وخارق، بل هو مذهل، ويعطي للزمان معنى آخر، هل تساءلت يا مقداد لم لا تشعر هاتان السمكتان بالملل.
- مقداد : ربما رغبة السمك الذكر بالانتحار، وممارسة شهوة الفناء، والهلاك.
عظرية : تنتظر يا عزيزي للأمر من ناحية فيزيائية، وكيميائية، ودعك من الفلسفة فهي طريق الكآبة والشroud، والمأساة، انظر إلى تلك الحركة الجميلة، وتلك المطاردة الأجل، هذا التناغم في الكرّ والفر، يعطي للماء إحساساً حياً، متوتراً، إنها كيمياء الرغبات وهي تسري في ذبذبات الشحنات السالبة.

إنه التفاعل الحيّ في الخلية الأولى، لبدء مسيرة التطور والارتقاء، ولادة الإنسان بعد مليارات السنين، ما هو الهدف الأعلى للتطور والبقاء.

مقداد : ظهور العقل

عظرية : أنت بلا عقل هذه الليلة. أنت تغالط نفسك، وتخدعها، إنك لم تعد قادراً على مجارة حتى السمك في السباحة والنشاط.

مقداد : يا عظرية، إنك تسألين ما الذي يدفع السمك الذكر لمطاردة السمك الأنثى ليل نهار، والأصح أن تسألني ما الذي يجذب السمك الذكر لأن يطارد السمك الأنثى ليل نهار، تسألين عن الدفع ولا تسألين عن الجذب، وماذا يتبقى من الجاذبية والجذب بعد أربعين سنة زواج، مخلص، ونزيه، هل الخلية الحية الأولى كانت متفائلة أنها ستلد إنساناً، لا يصيبه الملل، والخواء، والاعتیاد القاتل مثلنا.

عظرية : لا تتشاءم يا عزيزي، فالتيارات الكهربائية، والكهرطيسية، والسحب من الشوارد، والفوتونات، ستقذف بلا ملل مراكز الغدد الصم، ومراكز التحكم في دماغنا. نشاط الكائن الإنساني لا متناه. لكن شرط أن يتخلى عن الفلسفة، ويؤمن بالفيزياء والكيمياء، خاصة الكيمياء الحيوية، والحية، والفعالة، أتدري يا حبيبي لم نشعر بالممل أنا وأنت؟

مقداد : لا.

عظرية : رأيت، الفلسفة تفشل عن تقديم الجواب لكن الفيزياء تقدّم، إنه تماثل الأقطاب.

مقداد : تماثل الأقطاب.

عظرية : أجل، في بداية عمرنا كنت وإياك قطبين مختلفين، فكنا متجاذبين ليل نهار، لكن بعد الستين والسبعين أمسينا قطبين متماثلين، فصرنا متنافرين، متشائمين فالحل إذن في تغيير الأقطاب، فنعود لسيرتنا الأولى. تماثل السمك في نشاطه. بل أكثر نشاطاً.

مقداد : لدي يا عظرية نظرية أكثر دقة.

عظرية : ما هي؟

مقداد : حين يشيخ المغناطيس. فإنه يصبح وحيد القطب كهذا العالم الشائخ الذي يهيمن عليه قطب واحد. هو رمز مسير الحضارة نحو الدمار، والموت البطيء.

عظرية : يا أستاذ الفلسفة العتيق، كفّ عن التفكير بمنطق الفلاسفة العميق، وكن إنساناً مرة واحدة، وأنت على عتبات السبعين.

مقداد : الثمانين.

عظرية : حسناً يا حبيبي، النجاة أن أتحد أنا وإياك. أنت الفلسفة الميتافيزيقية وأنا الكيمياء

- العضوية وحين يتحد حمضي بازوت عظيم تتولد مركبات السماء الأساسية، وينطلق البخار. معلناً لنجاح التفاعل والاتحاد. فلنبدا إذن من التفاعل والاتحاد. فهو بدء الخلاص.
- مقداد :** كنت أحلم أن أتزوج شاعرة، أو رسامة، أو حتى عارضة أزياء. طويلة، أنيقة، تحب الموسيقى، والأناقة، لكن، أه. فحموضك تذيب تقاؤلي وانسجامي مع الزمن.
- عظريّة :** وأنا كنت أحلم أن أتزوج لاعب كرة تنس، وإن تعذر فلاعب كرة طائرة، إنهم يجيدون صفع الكرات جيداً. وإن لم يكن فلاعب كرة سلة يجيد القفز ورمي الكرة في السلة بإحكام، وإن تعذر كل ذلك فلاعب كرة قدم، يقذف بالكرة من منتصف الملعب فتستقر في المرمى. وأقفز في الهواء صائحة. هدف.. أه، ما أجمل تسجيل الأهداف في حياة المرأة. الفرح هدف، والسعادة هدف، والحلم هدف، والطفل الذي حرمت منه طوال عمري هدف. وما أكثر الأهداف التي خسرتها. لم تخسري الهدف الأخير.
- مقداد :** أنت هدفي الأخير. وأنا مصممة على أن أربحك، أيها العجوز الحكيم، نعم يا مقداد، ضاق الزمن حتى صار عينيك، وضاق المكان حتى صار ابتسامتك، لعلنا بدأنا نعرف الحب الحقيقي الآن، لأننا غريقان متشبثان بخشبة واحدة، إن تركها أحدنا، غرق الآخر.
- مقداد :** بدأت تتكلمين بلغتي، ومصطلحاتي.
- عظريّة :** أجل، والمعذرة، لأنني تعودت عليك طيلة أربعين عاماً حتى لم أعد أدري، أجسدي الذي استقرّ بي أم جسدك، أعقلي الذي أفكر به أم عقلك.
- مقداد :** لنبتعد عن بعض. فقد نعثر على بعض.
- عظريّة :** لم يبق أمامنا زمن. سوى أن تسحقتي أو أسحقك. لم يعد لدينا زمن لتجربة جديدة، أو حلم جديد، ضيعنا كل الإمكانيات حين كانت الفرص تطاردنا في الطريق لنقتنصها، ونحن كنا نرفضها بحجة الوفاء الزوجي.
- مقداد :** لقد كنتُ وفياً لك، لم أخنك طوال عمري. وهذه مأساتي، وأنا أسف لأنني ضيعت فرصة، أن أعرف امرأة غيرك.
- عظريّة :** وأنا كنتُ وفية لك، ولم أخنك طوال عمري، وهذه مأساتي، لكنني لست أسفة لأنني ضيعت فرصاً كثيرة للتعرف على رجال غيرك.
- مقداد :** ما العمل إذن؟
- عظريّة :** لا أدري. إنني تائهة. وضائعة يا مقداد. أحياء هي التي قدمتها لي أم هو انتحار طويل.
- ((ينهض مقداد. يحمل حوض السمك، يذهب إلى المطبخ صوت تحطيم حوض السمك يدخل بكامل تماسكه النفسي، وتركيزه العقلي والإرادي))**

- عظرية : كسرت حوض السمك يا مقدار؟
- مقداد : أجل.
- عظرية : والسمكتان؟
- مقداد : ماتتا.
- عظرية : قتلتهما؟!
- مقداد : نعم.
- عظرية : لم؟
- مقداد : كي أنقذك من حوض السمك. ووهم السمك.
- عظرية : ألا ترى يا مقدار أنني أنا وأنت نحيا في حوض سمك كبير اسمه هذا المنزل، وأننا نسبح أسرى هذا الحوض، وأن النجاة كما فعلت، تكمن في تحطيم أسر المكان.
- ((الْحِظَّة صَمْت))**
- مقداد : ما رأيك برحلة؟
- عظرية : إلى أين؟
- مقداد : إلى بلد عربي مجاور. أو حتى اليونان، لدينا مدخرات تكفي لذلك.
- عظرية : بالسفينة؟
- مقداد : بالسفينة.
- عظرية : وأنظر إلى الماء؟
- مقداد : تنظرين إلى الماء.
- عظرية : وأرى السمك يسبح في الماء.
- مقداد : وترين السمك يسبح في الماء.
- عظرية : وأرمني نفسي في الماء، فأصير سمكة تسبح في البحر؟
- مقداد : وترمين نفسك في الماء، وتصيرين سمكة تسبح في البحر.
- عظرية : وتطاردني جموع الأسماك؟
- مقداد : وتطاردك جموع الأسماك.
- عظرية : إنني موافقة يا مقدار، وأنت؟
- مقداد : إنني موافق.
- عظرية : أه، كم أحبك يا مقدار.
- مقداد : وأنا أحبك يا سمكتي الصغيرة.
- عظرية : وأنا أحبك يا صائد السمك، تصيدني عصراً، وتغني وأنت على الشط، صيد العصري، يا سمك يا بتي.
- مقداد : إيه، صدق من قال، الكون حوض سمك كبير، تصبحين على خير أيتها السمكة الذهبية الجميلة.
- عظرية : تصبح على خير. أيها الدلفين الذكي الحكيم.
- ((يدخل مقدار إلى غرفة نومه))**
- إيه، الآن أشعر أنني سمكة، أسبح في بحر الحرية، بحر الحياة الكبير، أنني أحقق ذاتي
- ((إنها تقلد السمك في سباحته))**

2000/8/15